

الاستيطان والتحالف الحضاري في ظل العولمة

(الاستعمار الفرنسي في الجزائر نموذجا 1830-1962)

أ. حسينة حماميد

قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة باتنة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة بعض المفاهيم والأساليب الجديدة لفكرة العولمة والتبعية الثقافية والاقتصادية عامة وماهية المستوطنون الأوربيون في الجزائر ومصطلح الاستيطان بخاصة. وعلى هذا سيقصر هذا البحث على عدة نقاط أساسية أهمها:

- 1- ماهية العولمة والتحالف الحضاري والدعوة إلى عالميتهما .
- 2- ماهية المستوطنون الأوربيون في الجزائر الذين يؤمنون بسياسة الاستيطان كمبدأ للتغيير واقعهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.
- 3- سياسة فرنسا الاستيطانية أثناء الإحتلال الفرنسي في الجزائر (1830-1962).
- 4- اتفاقيات إيفيان كتجسيد لفكرة التحالف الحضاري .

ABSTRACT:

What follows is a discussion of the notion of globalization and the settlement as a policy in order to establish a new root in the Algerian land during the French colonialism in Algeria.

In this article, my purpose is to concentrate on French colonialism in Algeria and possibility of cohabitence between communities.

As the Europeans settlers became involved in the French colonialism since 1830 the development of their political activities will be examined at length, particularly on settlement.

مقدمة: إن الاستعمار مرحلة دائمة للرأسمالية، وهي موجة توسع من أجل فتح أسواق التي ترتبت عن إنجاز الثورة الصناعية. ولتثبيت هذا الاستعمار، ارتسم الاستيطان كسياسة فريدة للاستيلاء على الأرض المستهدفة. إذا كان الاستيطان معناه اتخاذ بلدا ما موطننا، فإنه كذلك أسلوب من أساليب العولمة، وهي سياسة قديمة جديدة لتوسيع دائرة الاقتصاد الحر، كما أنه سياسة لإحكام السيطرة على العالم باسمه - الاستعمار الفرنسي في الجزائر الذي أراد أن تكون الجزائر فرنسية بغض النظر عن شعبها الأصلي المسلم-. إن دراسة هذا الموضوع تقتضي منا في البداية التعريف بمصطلح العولمة في حدود ما يخدم هذا الموضوع، ثم التعريف بالمستوطنين الأوروبيين في الجزائر وسياسة فرنسا الاستيطانية بهدف الوصول إلى واقع الاستيطان في الجزائر كأسلوب من أساليب العولمة وهل كان لهذا الأسلوب أن يخلق تحالفا حضاريا بين المجموعتين المسيحية والمسلمة في الجزائر.

1- معنى العولمة: على الرغم من التعاريف العديدة التي ظهرت في العقد الأخير لمفهوم العولمة إلى أنها مازالت محل اهتمام ومناقشة من قبل معظم المفكرين في وقتنا الراهن. والهدف من ذلك هو أن الغرب هو الذي يبدع ويخترع وينتج المفاهيم الجديدة المتنوعة والمصطلحات المختلفة في مجالات عديدة والغير يقوم بشرحها حسب ثقافته ومفاهيمه المعرفية، والغرب أيضا يبدع ويبتكر والغير يقوم بنقلها ويتفنن في ثقافته وحضارته وتاريخه يعطون وفنون الآخرين وأحيانا تنسب هذه والمعرفة العلوم المختلفة إلى قوم غير قومه، ولهذا نجد تم نقل مفهوم العولمة من لفظة الأصلي الذي هو في الأصل باللغة الإنجليزية (Globalization) إلى الفرنسية. (mondialization). ومنها ترجمت إلى العربية في أغلب الأحيان " بالكونية" وهذا يعود أساسا إلى العولمة الثقافية التي أصبحت كظاهرة جديدة حيث تمر بمراحلها الأساسية الأولى لأن العالم ليس موحد ثقافيا وحضاريا

وتاريخيا كما هو موحد تجاريا وماليا بالرغم من الثورة المعلوماتية الكبرى التي أصبحت في متناول الجميع.

أما بالنسبة للتعريف الذي نعتقد بأنه يتماشى مع موضوعنا هذا هو التعريف الذي جاء به على حرب في مقاله "الثقافة والعولمة" والذي قال: "... أما العولمة فهي مقولة راهنة من مقولات ما بعد الصناعة وما بعد الحداثة، ارتبطت بانفجار تقنيات الاتصال على نحو ضاقت معه الأمكنة وتقلصت المسافات، إلى حد جعل الأرض قرية صغيرة تسبح في هذا العالم العددي الذي يتشكل من الفضاء السبراني، ومنا هنا ما يسمونه باقتصاد الناعم ونقل المعطيات شبه المادية التي هي علامات وإشارات مسجلة على ألواح إلكترونية... إذن ثمة منطق جديد يشغل مع الفضاء الإلكتروني لا تعود معه الأشياء على ما كانت عليه. نحن، إزاء عالم افتراضي أثري لا يتألف من أشياء عينيه ولا من مفاهيم ذهنية بل يتركب من وحدات لا لون لها ولا وزن ولا حجم هي عبارة عن فيض متواصل من العمليات عبر الشبكات والتقنيات إنها الكائنات العديدة تحل محل الأشياء المصنوعة بعد أن حلت هذه محل الأشياء الطبيعية، شاهدة على طول تقني جديد يتجاوز العصر الصناعي إلى العصر السبراني. وهذه الكائنات أو الوحدات التي تسكن في العقول الإلكترونية وتسافر بسرعة الضوء على أساسها يتوحد العالم اليوم، وبواسطتها يجري الاتصال بين البشر"¹. ومن بين التعريفات الهامة التي نعتقد بأنها مازالت محل اهتمام ومناقشة والأقرب إلى طرحنا لموضوع الاستيطان الذي أصبح معولما في عالمنا اليوم نعتقد بأنه سيزداد ويتوسع مستقبلا في الجنوب من الكرة الأرضية وهو التعريف الذي جاءنا به الدكتور: حسن حنفي في كتابه المشترك مع الدكتور: صادق جلال العظم ما العولمة".

... العولمة مفهوم برز لأحكام السيطرة على العالم باسمه ولصالح المركز ضد مصالح الأطراف... العولمة مسألة صراع ومقاومة دفاعا عن الاستقلال ضد التبعية... العولمة ظاهرة اقتصادية وسياسية وتقنية ومعوماتية وتاريخية...² إذن فالعولمة أصبحت مفروضة

على الإنسانية والتنافس الاقتصادي الحر والثقافي والسياسي والتقني والإعلامي أصبح في متناول الجميع، وهي فرصة للمجتمعات المستهلكة لتغيير واقعها الاجتماعي والتعريف بحضاراتها وتффقاتها التي كانت منحصرة بين بعض الفئات والأقليات المجتمعية. وبالرغم من مخلفات الاستيطان الاستعماري الفرنسي في الجزائر وسلبياته على مجتمع الجزائري من قهر وظلم واستغلال ومصادرة الأراضي الزراعية الخصبة إلا أنه حقق عدة إيجابيات في توفير الاكتفاء الذاتي وتمويل دول حوض البحر الأبيض المتوسط بالمنتجات الزراعية والمساهمة في استصلاح الأراضي شبه الصحراوية التي أصبحت فيما بعد توزع على المستوطنين الصغار. ومن بين أهداف الاستيطان المعولم نجد المستوطنون الأوروبيون أثناء الإحتلال الفرنسي للجزائر ساهموا بطريقة أو بأخرى في تدعيم الأسواق الأوروبية بالمنتجات الزراعية وفتح أسواق جديدة أخرى في العالم والاستيطان الإسرائيلي في فلسطين ساهم في استصلاح الأراضي الزراعية ورفع الإنتاجية وفتح أسواق جديدة في العالم على الرغم من السلبيات والأضرار التي لاحقت الشعب الفلسطيني. وكذلك الاستيطان البريطاني في جنوب إفريقيا ساهم في تحسين الأراضي الخصبة واستصلاح الأراضي الزراعية مما جعل جنوب إفريقيا نموذجا للاستيطان الأوروبي والعرب أيضا استطاعوا حديثا أن يستثمروا أموالهم في الفلاحة وخاصة في بعض الدول الإفريقية ودول أميركا اللاتينية.

التحالف الحضاري: يعني التفاهم والتشاور والتحاور الممنهج بين مختلف المجتمعات البشرية وهذا التحالف لا يكون بين الشمال والجنوب فقط بل يجب أن يكون بين الأديان السماوية من جهة، والأديان الوضعية من جهة أخرى، وتجاوز الخلافات بين الشعوب وترقية مفهوم الحوار وفتح أسواق جديدة لكي تتكافؤ فرص العمل، والاستثمار الفلاحي، والإبداع الفكري، والتنوع الثقافي، والنهضة الشاملة، والاستفادة من تجارب الآخرين.

وعلى هذا الأساس يجب على أنصار هذا المذهب أن يفكروا في إنشاء مراكز ثقافية تهتم بتطوير فكرة التحالف الحضاري وترقية مفهوم التواصل بين الشعوب في أنحاء المعمورة من أجل الاستفادة من العولمة الاقتصادية والحدثة وما بعدها وذلك للسعي إلى المواطنة العالمية. والسؤال المطروح في هذه الدراسة من هم المستوطنون؟ وما هي ماهيتهم؟ وفي ماذا تتمثل أهدافهم الذاتية؟

2- ماهية المستوطنون الأوروبيون: لقد كان "فرنسيو الجزائر" أقدم تسمية عرف بها المستوطنون الأوروبيون وهي تعتبر أكثر استعمالاً، ويرجع أصل هذه العبارة إلى البلد المنشأ بهدف التفريق بين فرنسيي الجزائر وبين الفرنسيين الذين يعيشون في بريطانيا أو إسبانيا، وبذلك فإن هذه التسمية تحدد المنشأ الأصلي لهؤلاء السكان الذين فنحن لا نقول فرنسيي بريطانيا أو فرنسيي إسبانيا بل نقول فرنسيي الجزائر. وهناك فرضية أخرى تقول بوجود فهم هذه التسمية أي فرنسيي الجزائر لا عن طريق تمييزهم بين فرنسيي الجزائر وفرنسيي فرنسا لكن عن طريق مجموع السلالات المتميزة التي تشكل سكان الجزائر ذلك بشهادة الوثائق الإدارية وإحصاء السكان التي تبين من الجانب الأول الفرنسيون حيث تشمل فرنسيي الأصل والمجنسين أي الذين اكتسبوا الجنسية الفرنسية. أما الجانب الثاني الذي تشمله هذه الوثائق والإحصاءات فهم الأنديجان، لكن هذه اللغة الرسمية تفتقد إلى الوضوح والدقة لأن مصطلح أنديجان يعني ابن البلد الأصلي ويمكن تطبيقه بالمساواة مع الأوروبيين ومن جهة أخرى فإن هذا المصطلح قد بلغ حد حيث اشتمل على عناصر أخرى من السكان في الجزائر، منهم عناصر من أصل إفريقي، وعناصر من أصل بني سام وهم أنفسهم من الأنديجان وأنفسهم العرب البربر ونفس الحالة بالنسبة لبعض من اليهود ذو نشأة إسبانية الذين تهودوا وأصبحوا يمثلون البربر المتهودين³.

وفي هذا الصدد يذكر جاك بارك Jaques Berque* قائلا: "كل العالم يعلم بالقربة الموجودة بين العرب واليهود لأنهم من أصل بني سام وإن القرآن الكريم هو الذي أقام هذه القربة استنادا إلى "أبناء إبراهيم" وقد لاحظت منذ أمد طويل بأن الاسم القديم الذي يشير للعرب (Arab) يختلف عن الاسم القديم الذي يشير للعبري بصيغة إبدالية بسيطة أي تغير حرف من الكلمة بالتقديم أو بالتأخير: A.R.B/A.B.R ونفسه ع.ر.ب/ ع.ب.ر"⁴ زد على ذلك، فإن التسميات الإدارية الآتفة الذكر لا تسمح بتحديد وثائق العرب والبربر الذين طلبوا وتحصلوا على جنسيتهم بمعنى أن الإسباني أبقى على جنسيته الأصلية ونفس الشيء بالنسبة للسلالات الأخرى. وهناك أيضا تعبير مهم بالنسبة لمصطلح أنديجان، فهذا المصطلح كان يعبر عن الشر والاحتراف وزاد أنه اكتسب طابع احتقاري خاص ولهذا السبب فقد ذكر المؤرخ كسافيي ياكونو Xavier Yacono* أنه "وابتداء من سنة 1944 خصوصا أثناء حرب الجزائر 1954 بدأنا نميز بين المسلمين والغير المسلمين"⁵ ولكن هذا التمييز يعتبر خاطئا لأن الانتماءات العرقية لا تعطي تمييزا واضحا لأنه ليس كل العرب والبربر مسلمين وبعض الأوروبيين اهتموا إلى الإسلام. إنه بالإمكان تسمية هؤلاء والآخرين بالجزائريين وحتى إذا كانت هذه التسمية تخص الأوروبيين الذين يعيشون في الجزائر أولا⁶. تدريجا توسعت هذه التسمية وتحت ضغط الحركات الوطنية فقد حصرت في إطار هذه الكلمة أي الجزائريين في إطار المسلمين وفي هذا الصدد فإن هؤلاء يمكن مناداتهم بـ سكان شمال إفريقيا. هنا أيضا نجد تضارب في المصطلحات وذلك يعود إلى بعض الصحفيين الذين شددوا على تسمية العرب بالجزائريين خاصة في العشرية الأخيرة للجزائر الفرنسية ومنذ ذلك الحين اكتسب العرب فقط هذه التسمية. لكن هذا لا يمنع أن بعض الفرنسيين، وبسبب الخيبة وسوء المعاملة التي تلقوها من قبل وطنهم الأم فرنسا، أن يطالبوا بشدة "إفريقينتهم". ومن جانب آخر، فقد ولدت هجرة 1962 مصطلح جديد للدلالة على هؤلاء الذين انسحبوا إلى فرنسا وهذا المصطلح هو المعاد إلى وطنه "Rapatriés" وهو نتاج الإدارة الفرنسية

حيث أسست هذه الأخيرة سنة 1962 وزارة تحمل هذا الاسم. كثيرا من فرنسيي الجزائر من رفضوا هذه التسمية الجديدة مبررين ذلك بأن وطنهم الأصلي هو الجزائر وليس فرنسا ويفضلون مصطلح المنفي أو المنسحب أو المقلوع من جذوره بدل المرحل إلى وطنه. كثيرة هي المصطلحات التي تميز خاصية مؤثرة جدا لمغامرة رفض المستوطنون نسيانها، هذا ما دفع إلى تسمية الأوربيين المولودين بالجزائر بالمولدين البيض Créoles، لكن الاستعمال حصر هذا المصطلح فقط في مستعمرات الأنتيل. وعلى خلاف ذلك، فقد طبقت عليهم عبارة الأقدام السوداء les Pieds Noirs وقد انتشرت هذه التسمية بشكل واسع⁷ وهذا بدوره يقتضي منا طرح السؤال الآتي: ما هي المقاييس الممكن استعمالها في جعل هذا التعبير مناسباً؟ إنه من الصعب أن نحدد تعريفا دقيقا لمصطلح الأقدام السوداء دون الرجوع إلى أصل الكلمة، ومصدر اشتقاقها، ومعرفة مدى استعمالها. يذكر المؤرخ "كسافيي ياكونو" xavier yacono "فعلا، إنه في السنوات التي تلت إحصاء 1954 حيث كنا نعرف إلا المسلمين وغير المسلمين وفي هذا الوسط انتشر مصطلح الأقدام السوداء ولم نقل أنه ظهر⁸ ويؤكد بأن أصحاب المصلحة من المستوطنين قد اندهشوا عندما علموا بأنهم الأقدام السوداء. ومع ذلك وأبعد من مشكل الأصل ومعنى الصياغة هناك توضيح أخير يستحق الإبراز فيما يتعلق بالتكافؤ بين مصطلح فرنسيو الجزائر ومصطلح الأقدام السوداء والذي طالما أخلط بينهما عند الاستعمال. إنه يخص طابعها الموسع ويمكن أن يكون هنا الغرض الأساسي لهذا الشبه ترادف (الاشتراك في المعنى) الذي سيسمح بالخروج من هذا الالتباس على مستوى مدلول الكلمة وذلك عن طريق تحديد هوية صنف من السكان مقارنة بأصناف أخرى؛ إن كلمة الأقدام السوداء تعني كل المستوطنين الأوربيين وهي لا تعني الفرنسيين المسلمين وحسب المؤرخة جوال هورو Joelle Hureau فإن الأقدام السوداء في مضمونها الواسع تضم كل فرنسيي الجزائر الغير مسلمين⁹. وما نستخلصه من خلال هذا العرض والتحليل بمختلف التسميات والاختلافات في الآراء حول المعنى الحقيقي لمصطلح مستوطن أوربي هو أن

بحثنا هذا يهتم بالمستوطنين الأوروبيين المستغلين لثروات البلاد، المسيطرين على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمجحفين في حق السكان الأصليين. وسنستعمل في دراستنا هذه لفظ المستوطنين الأوروبيين ونادرا ما نستعمل لفظ فرنسيو الجزائر أو أوربيو الجزائر أو الأقدام السوداء لسببين اثنين هما:

- لقد استقبلت سنة 1954 ميلاد الثورة الجزائرية وأغلبية المستوطنين من أصل أوربي و فقط 11% من هم فرنسيي الأصل. وعموما فهم خليط من أعراق متناثرة جاءت من مختلف دول أوربا.

-السبب الثاني، وفي اعتقادي أنه الأهم، أنه مهما اختلفت تسميا تهم فالحقيقة والمعنى واحد، فالمستوطن هو ذلك المحتال، هو ذلك المستغل، هو ذلك المتمرد على أي تطور يكون لصالح المسلمين، هو ذلك الذي دفع ثمن سياسته المجحفة أن فقد الجزائر إلى الأبد.

3- **سياسة فرنسا الاستيطانية:** لقد خطط الساسة الفرنسيون منذ 1830 بأن تكون الجزائر مستعمرة للإسكان، ومن اجل ذلك بذلت فرنسا جهودا كبيرة لتشجيع الأوروبيين بصورة عامة والفرنسيين بصورة خاصة على أن يستوطنوا الجزائر بأكثر عدد ممكن. وللوصول إلى هذه الغاية عملت السلطات الفرنسية على أن تصبغ على عملية اتخاذ الفرنسيين من الجزائر موطنا لهم طابع الرسالة الحضارية مما حملها بالتالي، تشجيعا للهجرة إلى الجزائر وحثا للفرنسيين عليها على منح المهاجرين مميزات اقتصادية وسياسية كبيرة لترسيخ الفكرة القائلة بأنهم يقومون في سلوكهم هذا بعمل وطني ويؤدون رسالة قومية. لقد أدركت فرنسا أهمية تواجد المستوطنين في الجزائر، لدعم الاحتلال ورأس المال الفرنسي. وفي هذا الصدد نذكر نداء الجنرال كلوزيل إلى الأوروبيين الذين كانوا قد وصلوا إلى مدينة الجزائر بمناسبة وصوله إليها يوم 9 أوت 1835: "يجب أن تعلموا أن هذه القوة (العسكرية) التي هي تحت إمرتي ما هي إلا وسيلة ثانوية، ذلك أنه لا

يمكن أن نغرس العروق هنا إلا بواسطة الهجرة الأوربية فقط"¹⁰. وهناك أيضا حقيقة واقعة كبرى هي أن ممثلي السياسة الفرنسية قد تراءى لهم منذ عام 1830 أن احتلال الجزائر احتلالا عسكريا لا يؤمن سيطرة فرنسا عليها، فهي أراضي شاسعة الأرجاء متنوعة التضاريس ولكي يستقر احتلالها يجب أن تسير معه جنبا إلى جنب هجرة الفرنسيين ليستوطنوا فيها ويكونوا قوة تدعم الجيش، ومن جهة ثانية، قوة تمكن الجيش المحتل من حصر أصحاب البلاد الشرعيين في مناطق يسهل فيها الإشراف عليهم ومراقبتهم فتمت للمحتلين من العسكريين والمدنيين السيطرة عليهم اقتصاديا وسياسيا.

وانطلاقا من هذه الحقائق، فقد طبق من عام 1830 إلى 1940 الاستيطان الحر أو الأفضل أن نقول فوضوي، فعندما احتلت مدينة الجزائر انقض على البلاد رهط من البشر المتوحشين كسبوا عن طريق المتاجرة، بأبنية المدن، وحاولوا احتكار الأراضي، وقطع الغابات، وأصبح ساحل الجزائر الغني بالمتكاثات والبيوت الريفية التي هجرها أصحابها جزئيا ميدانا خاليا استقر فيه بالإضافة إلى الخماسين الذين كانوا يزرعون هذه الممتلكات، مشترون أوربيون مشكوك في حسن نيتهم، وأرستقراطيون رومانتكيون"المستوطنون ذوي القفازات الصفراء". وكان المار يثال كلوزيل، وهو الاستيطاني العنيف، هو القدوة في ذلك، فحصل بسعر رخيص على أملاك واسعة وحاول أن يجعل من متيجة "مستقرا للمتسولين القادمين من أوربا"، فقدمت من إسبانيا، وجزر الباليار، ومالتا، وإيطاليا قوارب تنقل سيلا من فقراء الصعاليك. زد على ذلك أنه دخل على البلاد رسميا عمال بارسيون ومهاجرون ألمان وسويسريون¹¹. وزيادة على هذه الفوضى، فقد حدث مثلا في عام 1831 أن وجدت فرنسا جماعة من الألمان والسويسريين في ميناء الهافر الفرنسي في طريقهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فرحلته بالقوة إلى الجزائر¹². لكن هذه الهجرة لم تأت أكلها، فقد ظل عدد المستوطنين المزارعين ضئيلا، حتى عهد بيجو، فعنده أن الدولة إذا أرادت قيام حكم ثابت في إقليم خارجي، لا يكفيها قهره عسكريا، بل لابد من نشر

عنصرها في هذا الإقليم. وبما أن بيجو يعتبر صاحب منهج في نظم الاستعمار فقد ترك للحكومة أن تتولى بنفسها نقل المهاجرين، وتعبيد الطرق وإنشاء المساكن ومدّهم بالحبوب والمواشي في السنوات الأولى، حتى يصبحوا قادرين على استغلال أراضيهم بأنفسهم¹³. لكن التغيير الجذري في وضعية المستوطنين حدث في عام 1848م حين وقعت الثورة، وشارك الأوربيون فيها بوفد، وطالبوا بإدماج الجزائر في فرنسا بصفة رسمية وإعطائهم 04 مقاعد في البرلمان الجديد. وبالفعل، لم تخيب الجمهورية الثانية آمال المستوطنين، فقد سمحت لهم أن يرسلوا أربعة ممثلين عنهم إلى الجمعية التأسيسية، وأن يرسلوا ثلاثة نواب إلى الجمعية الوطنية التشريعية. وأعلن دستورها الجزائر "جزء مكملًا" للتراب الفرنسي، وقسم التراب المدني إلى ثلاثة عمالات بواسطة مرسوم 09 ديسمبر 1848م الذي ألغى التراب المختلط فأصبحت العمالة، التي خلفت المقاطعة، مقسمة إلى تراب مدني وتراب عسكري، الأول تحت إدارة العمالة والثاني تحت قيادة ضباط عسكريين¹⁴ وقد تحصلوا على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ: 04 نوفمبر 1848م والذي نصت المادة 109 منه على اعتبار الجزائر أرض فرنسية¹⁵ إن الصراع السياسي على السلطة كان قائما بين المستوطنين الأوربيين والجيش منذ الاحتلال ولغاية 1870، أي حتى بعد انهزم الجيش في معركة سيدان والقي القبض على نابليون الثالث من طرف الألمان، وأذاك فقط نالت الكفة لصالح المستوطنين حيث جاءت حكومة الدفاع الوطني لتتخذ إجراءات خطيرة لصالح المستوطنين في الجزائر وتحقق جميع مطالبهم. لقد تبين للمستوطنين الأوربيين أن حكومة الجمهورية الثالثة تتبع سياسة جديدة متفقة مع معظم مطالبهم. فكان أول ما اتخذته الحكومة الفرنسية من إجراءات بعد سقوط "نابليون الثالث" هو سحب السلطة من يد العسكريين والمكاتب العربية وتسليمها إلى المدنيين، ثم تطبيق النظم السارية في فرنسا على الجزائر، وهو ما

يعرف بسياسة الإدماج، لتمكين المستوطنين من التمتع بجميع النظم الديمقراطية السائدة في فرنسا، وذلك بتطبيق جميع القوانين والحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرنسيون في الميتروبول على المستوطنين في الجزائر، علاوة على امتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية التي استمدوها من سياسة الإقصاء والتشريد التي اتبعوها مع أهالي البلاد المسلمين. والحق أن سياسة الجمهورية الثالثة كانت رد فعل على سياسة الإمبراطورية الثانية التي أغضبت المستوطنين. أما السكان الأصليون فلم يكن لوجودهم أي اعتبار بل ربما فكر الفرنسيون فيما هو أبعد من سيطرة العنصر الفرنسي إداريا واجتماعيا وثقافيا، وهو تحقيق الأغلبية العددية لعنصرهم عن طريق سلب السكان الأصليين جميع موارد الثروة التي يعيشون عليها، واضطرارهم إما إلى الهجرة خارج الجزائر أو النزوح إلى الجنوب حيث قساوة الطبيعة وقلة موارد العيش.¹⁶ وهكذا وبعد محاولات عديدة نجح المستوطنون كذلك في خلق حكومة لهم في أرض عربية. فبمقتضى قانون 19 ديسمبر 1900 لم تعد الجزائر امتدادا لفرنسا وإنما أصبحت عندها الشخصية المدنية والاستقلال الذاتي.

المستوطنون الأوروبيون واتفاقيات إيفيان:

جاء في ميثاق الثورة الجزائرية في ما يخص المستوطنين الأوروبيين. في يوم 18 مارس 1962 على الساعة الثامنة مساء، أعلن الجنرال ديغول نتائج اتفاقيات إيفيان، وفي الوقت ذاته كان رئيس الحكومة الجزائرية السيد بن يوسف بن خدة يعلن عن وقف القتال عبر موجات راديو تونس والرباط وطانجة، وطرابلس والقاهرة. وكانت مسألة الأقلية الأوربية من النقاط الصعبة التي واجهت الوفد الجزائري خلال المفاوضات وفي هذا الصدد يقول المجاهد "بن طوبال": "... حيث أن المفاوضين الفرنسيين اشترطوا قوانين خاصة بالجالية الفرنسية المتمركزة في المدن الرئيسية للجزائر التي بها أغلبية فرنسية وهي أربع مدن: عنابة، الجزائر، وهران، بلعباس. حيث تنص الاتفاقيات على أن يكون في هذه

المتضمن الأحياء الفرنسية محافظ للشرطة وقاض فرنسيان، إذ كانوا متشبثين بهذه الشروط كثيرا لأنهم كانوا متخوفين من الجالية الفرنسية الموجودة في الجزائر والمتمثلة في منظمة الجيش السري والقوات الفرنسية في الجزائر. وهذا مشكل إنساني، إذ لم يكونوا على استعداد للتضحية بمليون من مواطنيهم الفرنسيين...¹⁷ وأهم ما جاء في هذه الاتفاقيات فيما يخصهم هو كالاتي:

-النظم الخاصة بالمواطنين الفرنسيين الخاضعين للقانون المدني العام :

1- في إطار القانون الجزائري الخاص بالجنسية، ينظم الوضع القانوني للمواطنين الفرنسيين الخاضعين للقانون المدني العام طبقا للمبادئ التالية:

يستفيد المواطنون الفرنسيون الخاضعون للقانون المدني العام لمدة ثلاث سنوات من يوم تقرير المصير، بالحقوق المدنية الجزائرية ويعتبرون من أجل هذا مواطنين فرنسيين يمارسون الحقوق المهنية الجزائرية، إذا انطبق عليهم ما يلي:

- الذين أقاموا عشر سنوات في القطر الجزائري إقامة دائمة ومنتظمة حتى يوم تقرير المصير، وكان الوالد أو الوالدة، المولودون في الجزائر، استوفوا أو يستطيعون أن يستوفوا الشروط الخاصة بممارسة الحقوق المدنية.

ولا يستطيع المواطنون الفرنسيون الذين يمارسون الحقوق المدنية الجزائرية أن يمارسوا في نفس الوقت الحقوق المدنية الفرنسية. وهم يكتسبون في نهاية المدة المقررة بثلاث سنوات الجنسية الجزائرية وذلك بتقديم طلب تسجيل أو طلب للتصديق على تسجيل في جداول الانتخاب ويكتفي بعقد العمل في حالة عدم تقديم هذا الطلب.

2- اتخاذ الخطوات التالية من أجل ضمان الحماية، لمدة ثلاث سنوات للمواطنين الفرنسيين الذين يمارسون الحقوق المدنية الجزائرية وبعد نهاية هذه المدة بصفة دائمة للجزائريين

الخاضعين للقانون المدني العام وذلك بالنسبة لأموالهم لاشتراكهم المنتظم في الحياة الجزائرية:

- لهؤلاء الحق في الاشتراك الرسمي في الشؤون العامة .
- يجب أن يتناسب تمثيلهم في المجالس مع أهمية مراكزهم الفعلية
- يشتركون في مختلف فروع الوظائف العامة اشتراكا عادلا .
- سيكون اشتراكهم في شؤون البلديات، في الجزائر ووهران تبعا لنظم خاصة.
- ستحترم حقوقهم في الملكية ولن يتخذ أي إجراء ضدهم بالنسبة لمصادرة أملاكهم، بدون منح تعويض عادل يحدد من قبل .
- سيسلمون الضمانات المناسبة للمتقنين واللغويين ورجال الدين.
- سيحتفظون بقانونهم الشخصي الذي ستحترمه وتطبقه محاكم جزائرية مكونة من قضاة يخضعون لنفس القانون.
- سيستخدمون اللغة الفرنسية في المجالس وفي علاقاتهم مع السلطات العامة .
- ستقوم محكمة للضمانات وهيئة للقانون الداخلي الجزائري بالعمل على احترام هذه القوانين.¹⁸

فرنسا والجزائر من التساهل إلى التجالف: إذا كانت العولمة الجديدة المستقبلية تهدف إلى تحقيق الدائري وتعميم الشيء فإن الاستيطان يهدف إلى تغيير الأصول العرقية والبيئية المستقبلية. وعلى هذا الأساس فالفترة الممتدة من 1830 إلى 1962 كانت تمثل سلطة الأقلية الأوربية التي لا تمثل سوى عشر سكان الجزائر، حيث عمل هؤلاء بكل إرادة وحزم على منع الجزائريين المسلمين من الحصول على أي تمثيل سياسي. لقد اعتبرت فرنسا الجزائر منذ بداية الاستعمار مستعمرة للإسكان ولذلك فقد بذلت السلطات الفرنسية كل ما في وسعها منذ الاحتلال لتشجيع الاستيطان الأوربي في الجزائر، لكن لم تكن هذه السياسة ذات نظرة بعيدة إلى المستقبل، ذلك أن تلك السلطات رأت في

الاستيطان عاملا فقط لتدعيم احتلالها وراس مالها. لكن سرعان ما أصبح ذلك الاستيطان من القوة بحيث يستطيع متابعة السياسة الاستعمارية التي يعود إليها بقاء المستوطنين ودعم سياسة فرنسا. وكان من نتائج ذلك ظهور امتيازات اقتصادية كبيرة جدا رافقتها بسرعة جنباً إلى جنب امتيازات سياسة هامة جدا ومنحت هذه وتلك إلى المستوطنين الأوروبيين. مع ذلك، كانت هناك أصوات فرنسية وأخرى جزائرية تنادي بضرورة خلق تحالف حضاري منها:

فكرة المملكة العربية - وإن كانت من صنع خيالات لويس نابليون الثالث - التي تعني جعل الجزائر مملكة عربية وتنصيب الأمير عبد القادر ملكا عليها¹⁹ لأن الأمير اعتبر في ذلك الوقت النموذج الجزائري الذي بهر العالم من خلال منحه الأمان لكل من استجار به نصارى بلاد الشام، ووقوفه وتضامنه معهم ضد أتباع دينه من الدروز المسلمين خلال أحداث جويلية 1860 التي وقعت بدمشق²⁰ وحينما أراد الكاردينال لا فجري شكرانه على ما فعل أجاب الأمير ببساطة محدثه " لن يتسنى لي نسيان هذا الحوار". وعلى الرغم من أن فكرة المملكة العربية كشفت الستار عن تناقضات سياسة نابليون الثالث، فإنها كشفت أيضا عن نوع من توبيخ الضمير أسفا على ما فرط الفرنسيون في جانب الجزائريين وهذا بطبيعة الحال بعد إنتصار الثورة الجزائرية²¹. إلى شخصية نابليون الثالث، برزت شخصية الفرنسي توماس إسماعيل عوربان الزنجي المولد، كعضو في الساتسيمونية كان يؤمن بالاستعمار الخيري وهذا النوع من الاستعمار هو الذي يجلب التقدم الحضاري إلى الأهالي المغلوبين، ويخرجهم من التخلف في إطار الدولة المستعمرة - بكسر الميم-. وباختصار، فإن أطروحته تقوم على أن الأرض يجب أن تبقى للفلاح الجزائري الذي يعيش بطبيعته على الزراعة فيربي الماشية ويزرع الأرض الخ، أما دور المستوطنين فهو الصناعة وتوفير وسائل الإنتاج الصناعية للفلاح الجزائري، مع العيش في المدن وعدم منافسة الفلاح في أرضه(22). الدولة الجزائرية الحديثة اعترفت سنة 1962 بحقوق المستوطنين الأوروبيين

ووضعت قوانين لدمجهم ومعاملتهم كمواطنين جزائريين. كذلك نصت الإتفاقيات على أن اللغة الفرنسية ستستخدم في المجالس وفي علاقاتهم مع السلطات العامة، هذا إن دل على شيء فإنه يدل على التأثير الكبير الذي خلفه الاستيطان. من حيث لا ندري، فقد نتج تحالف حضاري بين المستعمر والمستعمر فيما يخص الجانب الثقافي والاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي ودلينا على ذلك أن الجزائر بعد 1962، طبقت النظم السارية المفعول في فرنسا على التربية والتعليم والاقتصاد والإدارة ... إلخ. حاليا، يتواجد أكثر من مليونين من الجزائريين مقيمين على الأراضي الفرنسية هو دليل آخر على إمكانية التعايش والتحالف. معاهدة الصداقة الذي هو مشروع للمصادقة عليه بين الجزائر وفرنسا يؤكد أطروحة أن الاستعمار في صيغته العامة والاستيطان كألة للتنفيذ، قد خلق آليات للتقارب والتحالف بين الجزائريين والفرنسيين .

الخاتمة: بعد هذا العرض حول عولمة وآلياتها التي هي الاستيطان كمتغير بإمكانه أن يخلق آفاقا للتعاور والتعارف والتحالف نصل إلى نتيجة مفادها: إن الدعوة إلى التواصل الثقافي والتبادل التجاري المبني على العدالة الاقتصادية واستغلال الأراضي الفلاحية بتقنيات حديثة وفتح مجالات مختلفة في جميع الميادين بين الشمال والجنوب جد ضرورية . الشمال الذي يخطط للإستراتيجية الجديدة لما بعد العولمة وما بعد الحداثة والجنوب الذي يستفيد من خبرات ومنتوجات الشمال وتكنولوجياته المتطورة فالمطلوب من الجنوب أن يتحرر من الذهنين القديمة ويسمح بالاستيطان الجديد لاستغلال ثرواته الطبيعية وذلك لتعميم الفائدة على الجميع. وهذا يدفعنا أيضا إلى ترقية مفهوم الحوار مع الآخر في ظل العولمة وما بعدها. المطلوب من الجنوب كذلك أن يدعم فكرة الاستيطان من أجل استغلال ثرواته الطبيعية ومن أجل القضاء على الفجوة الطبقة وعلى التبادل المجتمعي وخاصة منها اليد العاملة الماهرة والتوازن بين المنتج والمستهلك وخلق فرص العمل في دول الجنوب، والدعوة إلى ترقية مفهوم الحوار بين الثقافات من أجل التحالف بين الحضارات المختلفة والقضاء على الصراع الحضاري الذي بدأ يتراجع في بداية الألفية الثالثة .

- 1- د . علي حرب، الثقافة والعولمة (مجلة الشاهد) بيروت عدد 159 تشرين ثاني، نوفمبر، 1998، ص 83.
- 2 - حسن حنفي، صادق جلال العظم، ما العولمة؟ (دمشق : دار الفكر، 1998) ص:ص 257-258
- 3- Xavier Yacono, Les Pieds – Noirs. Paris : Editions Lebaud, 1982, p:6
- * - عالم بالآداب واللغات الشرقية وأستاذ بجامعة فرنسا.
- 4- Jacques Berques, Arabies . Paris: Stock, 1978, p.257
- * - أستاذ بجامعة الجزائر ثم بجامعة تولوز.
- 5- Xavier Yacono, Op. Cit ., p18
- 6- Joelle Hureau, La Mémoire Des Pieds Noirs. Paris : Orban, 1987 , P 89.
- 7 - Xavier Yacono, Op.Cit ., P 184.
- 8- E.Bruea, "Nous Les Pieds Noirs". Histoire Magazine, N°387, p19
- 9- Joelle Hureau , Op.Cit., p18(9)
- 10 - صالح عباد، الجزائر بين فرنسا والمستوطنين 1830-30. قسنطينة: ديوان المطبوعات الجامعية ص 11
- 11 - شارل روبير آجبرون، تاريخ الجزائر المعاصر. ت عيسى عصفور، بيروت: م عويدات ص 41-42.
- 12 - صلاح العقاد، التطور السياسي الفرنسية في الجزائر. القاهرة . مطبعة الرسالة، 1960 ص 16.
- 13 - نفس المرجع، ص 17.
- 14- نفس المرجع، ص 33.
- 15 - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 62. ط1، بيروت: دار المغرب الإسلامي، ص 126.
- 16 - صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 29.
- 17 - عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، ج3، الجزائر - قسنطينة، دار البعث: 1991. ص 219
- 18 - بن يوسف بن خدة: إتفاقيات إيفيان، (ت لحسن زغدار). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1987، ص. 90-91-92.
- 19 - سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية 1860 - 1900 ج1(بيروت: دار المغرب الإسلامي، 2000) ص: 11
- 20- زعيم خنشلاوي. الحضارات والثقافات الإنسانية . الشروق اليومي 05 فيفري 2006 العدد 1602 ص 19
- 21 - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق ص 11
- 22 - نفس المرجع، نفس الصفحة